«فإننا عند الله رائحة المسيح الطيّبة بين السائرين في طريق الخلاص وفي طريق الهلاك: لهؤلاء رائحة تسير بهم من موت إلى موت، ولأولئك رائحة تسير بهم من حياة إلى حياة».

(2 قورنثوس 2: 15، 16)

«ها هوذا الخَتَن يأتي في نصف اللّيل، فطوبى للعبد الذي يجده مستيقظًا، أما الذي يجده متغافلاً فهو غير مستحق...».

(من صلاة الختن في الأسبوع العظيم المقدّس)

«ألبسني يا رب في عرسك رداءً أهلاً، الذي ستعدّه نعمتك من أجلي طالما أنا هنا».

«أي نوع من الأشخاص سأظهر به أنا الخاطئ في تلك الساعة المرعبة؟».

«حاولي (أيتها النفس الخاطئة) الاستعداد لتلك الساعة الرهيبة، لئلاّ تبكي آنئذٍ طوال الدهور».

(القدّيس افرام السوري، «المزامير الروحية»، ترجمة د. عدنان طرابلسي)

متى يأتي السّارق؟

البارحة وأنا أمام الإيقونسطاس – حائط الشفاعة والصلة الحيّة بين المؤمنين الذين رقدوا على رجاء القيامة وبين المؤمنين الذين ما زالوا يجاهدون من جهة، والله واهب الحياة وملكوته من جهة أخرى، أرفع ابتهالات الكنيسة وطلباتها وجهادها وبؤسها وآمالها، مرّت ببالي خاطرة وأثارت لديّ أسئلة كثيرة منها: ماذا لو علمت أن السارق سيأتي بعد دقائق معدودة؟ كيف أنتظره؟ هل أنا جاهز لاستقباله؟ وبأية حال أنا مستقبله؟

رعشة الأسئلة اجتاحت مفاصلي وتسارعت دقّات قلبي وضاق نفَسي، لكنني تمتمت بنداء لله وقلت «يا رب» إلى أن تمّت صلاة الشكر. خلال هذا الوقت أحسست بقوة تنتشلني من رعشتي واضطرابي وتقودني إلى الابتهال بخشوع أكبر وتقوى أعظم وكان أداء الصلاة ممتازًا، جامعًا كل جوارحي ومشاعري ومرتقيًا بهما إلى أحضان واهب الحياة. كانت هذه المرّة الأولى التي فيها يتحرّك كل كياني غير آبه بتقنية اللّحن والأداء إنما كان مهتمًا فقط بأن يُجيد بأجود ما عنده، أن يُقدِّم كلّ ذاته تقدمة شكر حيّة لله الذي جمّع كل فرائصي وانتشلني من الرعشة التي أربكتني.

نعم، كيف أستقبل السارق؟ كيف يكون إتمام العمل الأخير هنا على الأرض قبل الانتقال واجتياز بوابة العبور؟ وماذا لو تواجه جميع المؤمنين مع السارق في تمام اللحظة، كيف يكون تصرفهم الأخير؟
في تلك اللحظة عادت إلى ذاكرتي أيام المرض والمستشفى والتي فيها كان الأطباء قد ذكروا لمريض معي في نفس الغرفة أن لحياته الفيزيائية المرئية أيامًا معدودة على الأرض. فبدأ هذا الشخص بتحضير إرثه إذ كان غنيًا وترتيب أمواله واتخاذ الإجراءات المناسبة كي يعطي كل ذي حقّ حقّه من دون أن يحدث شرخًا في العلاقات أو خلافًا أو توتّرًا. لقد عمل ما رآه مناسبًا كي يكسب ودّ الله بالذين من حوله، وأصبح مصلّيًا ومطمئنًّا إلى ربّه وإلهه منتظرًا رحمته أن يُبعِد عنه الكأس ولكن «فلتكن مشيئتك». كان إعلامه بمدّته المحدودة على الأرض إيذانًا له أن يُعِدّ نفسه لمواجهة السارق وأن يكون حاضرًا أبدًا وعلى أتم الاستعداد. فكانت لحظاته الأخيرة «كاملة». لم أدرِ ماذا جال في خواطره من أحاسيس مؤلمة أو مفرحة، بل جلّ ما شاهدته أنه كان يُريد أن يتمّم عمله كاملاً على أتمّ وجه. لقد استحقّ الموقف الذي

وضعنا أمامه السيد المسيح كي نكون جاهزين ومستعدّين في كلّ وقت لأننا لسنا ندري في أي لحظة يباغتنا السارق.

يعلّمنا آباء الكنيسة من خلال مواقفهم وإرشاداتهم وما طلبوه منا، وهو ما عاشوه هم أنفسهم، أن نضع لحظات الجهاد الأخيرة نصب أعيننا، فتأتي أعمالنا دائمًا كاملة لمجد الله، فتكون أعمال توبة ومحبّة ورحمة. وهكذا تكون أيام جهادنا الأرضي أيام جهد وبذل وتفان لارتقاء سلّم الفضائل، سلّم القداسة، الذي وضعه السيد المسيح ليصل الملكوت السماوي بالملكوت الأرضي، فيكون سلّم الخلاص ورجاء المؤمنين.

في خضمّ الحياة الأرضية، ننسى الأيام الأخيرة وتحدّياتها إلى أن تفاجئنا، وعسى يكون هناك وقت للندم. لحظة المواجهة دائمًا محرجة، حتى أن أخبارًا عن أصفياء الله كانوا يطلبون مزيدًا من الوقت الأرضي لتوبة أعمق ولصفاء أنقى. ولكن هناك أولاً وأخيرًا رحمة الله التي هي بلا شكّ العنصر الأوحد للخلاص. هذه المواجهة هي التحدّي الأعظم فتكون حياتنا الأرضية جهادًا وليس عراكًا. إن الجهاد هو للّذي عرف الطريق وسلكه مواجهًا صعابه ومتغلّبا عليها بإيمان وصبر وتوبة، أمّا العراك فهو للّذي لم يحدِّد بعد مساره فيتعارك بين ملاذ الحياة الأرضية ومسلك الإيمان والعمل بوصيّة الله.

هذا ما هو المطلوب من الكنيسة، فإنها على الأرض تُدعى مُجاهِدة لأنها على جهادٍ دائم وتحدٍّ دائم. إن وقت مجيء السارق غير معلوم. وعلى الكنيسة أن تكون ساهرةً مقيمةً للتسابيح والأعمال المجيدة. يجب أن تكون عاقلة وبهيّة مُنتظِرة ومسبِّحة على الدوام، ليس خوفًا من السارق، بل طالبةً وراجيةً ومنتظرةً العريس بحلّة لائقة. فهي أبدًا يجب أن تكون حاضرة وجاهزة وساهرة كي تدخل معه إلى الخدر. فبهذا الجهاد والرجاء والانتظار، لا مجال للسارق أن يسرق بل يُصبح عروسًا مزفوفًا بالمراتب الملائكية. إن السارق يأتي على النائمين والفاترين والكسالى فيسرقهم على حين غفلة، أمّا الذين هم دائمًا في حضور وجهوزية وسهر فيأتيهم الختن ويُلبسهم لباس العرس ويُدخلهم بالأبواق والأناشيد معه إلى الخدر.

حضورنا الدائم هو وجودنا بشوق للقاء؛ أن نكون جاهزين فهذا يعني أننا قد احتطنا من كل المكائد مجهَّزين بالدروع الواقية كما يقول بولس الرسول، وساهرين بوداعة لاستقبال ملك الكلّ. فإننا نحن هم «الذين له مما له مقدّمين أنفسنا له من أجل كل شيء ولأجل كل شيء».

هكذا يجب أن تكون لحظاتنا الأخيرة ماثلة أمامنا دائمًا، فيكون كل عمل لنا هو «العمل الأخير»، فنتمّمه بامتياز كي نرى مجد الله. إننا إذا صنعنا كلّ عمل كأنه العمل الأخير لنا فمن دون شكّ ستنقلب الحياة الأرضية إلى ملكوت سماوي تُعاين فيه الخليقة البشرية الخلق بعين الله لأن الله قد انسكب فيها وحوّلها.